بسم الله الرحمن الرحيم

معجزة في طريق الهجرة: قصة سراقة بن مالك

قبل أن نبدأ الحديث عن هذا الصحابي الجليل، سراقة بن مالك. يمكن أن نشبه الإسلام بهرم، مقسم إلى أربعة أقسام، القسم الأعلى هو القرآن الكريم، كلام الله عز وجل، القسم الثاني السيرة النبوية التي بيَّنت، وفصلت القرآن الكريم, قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. كيف فسر النبي القرآن ؟ النبي عليه الصلاة والسلام فسره من خلال السنة النبوية، فالسنة هي التفسير العملي للقرآن الكريم، فالجزء الثاني من الهرم, هو السنة القولية، لكن أفعال النبي أوسع من أقواله، فإذا درستَ السنة الفعلية التي فعلها النبي يمكن أن تكوِّن الجزءَ الثالث من الهرم، قد لا نفهم السنة القولية إلا من خلال السنة الفعلية، كان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل كذا، ولا يفعل كذا، تبيِّن أحواله، وحركاته، وسكناته، وسكوته، وهناك سنة فعلية، وإقرار. والقسم الرابع من الهرم: سيرة أصحابه، لأنها تمثل نماذج متعددة . النبي عليه الصلاة والسلام شخصٌ واحد، لكن أصحابه كثر، صحابيٌ غني جداً، صحابيٌ فقير جداً، صحابيٌ شاب صغير، صحابيٌ شيخ فانٍ، صحابيٌ حاد المزاج، صحابيٌ هادئ الطباع، فكأن أصحابه يمثلون نماذج بشرية، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((سَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلافًا شَدِيدًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)). فماذا فعل هذا الصحابي الذي رضي الله عنه، وأقرَّ النبيُّ فعلَه؟ هذا فعله كامل، يمكن أن اقتدي به.

عودة إلى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم سرى نبأُ هجرته في مكة كان نبأ غريبًا، أن محمداً قد بارح مكة، مستتراً بجنح الظلام، فلم يصدِّق زعماء قريش النبأ، واندفعوا يبحثون عن النبي في كل دارٍ من دور بني هاشم، وينشدونه في كل بيت من بيوت أصحابه، حتى أتوا منزل أبي بكر، فخرجت إليهم ابنته أسماء، قال لها أبو جهل: أين أبوك يا بنت؟ قالت: لا أدري أين هو الآن؟ فرفع يده ولطم خدها لطمة أهوت بقرطها على الأرض، وصار يغلي غضباً، يعني كلهم يظنون أن محمداً في قبضتهم، انطلق زعماء قريش في كل اتجاه، يبحثون عن محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن أيقنوا أنه غادر مكة، وكان عند العرب قفاةٌ للآثار, أي خبراء، فتتبَّع قُفاةُ الآثارِ آثارَ النبي فوصلوا من خلال آثاره إلى غار ثور، مكان اختباء النبي وصاحبه الصدِّيق، قال خبراء الآثار حينما وصلوا غار ثور: والله ما جاوز صاحبكم هذا الغار، ولم يكن هؤلاء مخطئين فيما قالوه لقريش، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه داخل الغار، وكانت قريش تقف فوق رأسيهما. النبي الكريم حينما هاجر من مكة إلى المدينة، أخذ بكل الأسباب، فسار عكس الطريق المألوف إلى المدينة، خرج في جنح الظلام، عيَّن رجلاً يمحو الآثار، رجلاً يتتبع الأخبار، وشخصًا يأتيه بالزاد، فما من ثغرةٍ إلاَّ وسدَّها، وما من احتياط إلا وغطاه، ما من خطة إلا وأحكمها، ومع ذلك وصل كفار قريش إلى الغار. وماذا يعني أن

يصل كفار قريش إلى الغار؟ لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بهذه الأسباب واعتمد عليها، وفوجئ أن كفار قريش كانوا على باب الغار، فماذا يمكن أن يحصل؟ ينبغي أن ينهار النبي، لأنه أخذ بالأسباب واعتمد عليها, لكن **النبي أخذ بالأسباب واعتمد على الله. إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، وإن لم تأخذ بها فقد عصيت**، وخيطٌ دقيق يبعدك عن الشرك، وعن المعصية، أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد على الله، وهكذا فعل النبي، أخذ بكل الأسباب، واعتمد على الله تعالى. وصل كفار قريش إلى غار ثور، وبقي النبي رابطَ الجأش، واثقاً من نصر الله عز وجل له، لم تلِن له قناة، وما خارت قواه، سيدنا الصديق لما رأى أقدام القوم تتحرك فوق الغار دمعت عيناه، وفي روايات تفصيلية أن قطرةً من دمع الصديق وقعت على يد النبي، فانتبه النبي وقال: أتبكي يا أبا بكر؟ قال: واللهِ ما على نفسي أبكي،ولكن مخافة أن أرى فيك مكروهاً يا رسول الله, فقال عليه الصلاة والسلام مطمئناً: لا تحزن يا أبا بكر فإن الله معنا, فقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

حينما يئست قريش أن تقبض على النبي وضعت جائزة مئة رأس من الإبل، لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وسراقة بن مالك كان في بعض أندية قومه قريباً من مكة فإذا برجل يدخل عليهم، ويذيع فيهم نبأ الجائزة التي بذلتها قريش لمن يأتيها بمحمدٍ حياً أو ميتاً، رقم يغري, ثروة طائلة, من أجل قتل محمد قضية سهلة، لبس سراقة درعه، وتقلد سلاحه، وركب صهوة فرسه، وطفق يغذُّ السير ليدرك محمداً قبل أن يدركه أحدٌ سواه، ويظفر بجائزة قريش .

وكان سراقة بن مالك فارساً من فرسان قومه، طويل القامة، عظيم الهامة، بصيراً باقتفاء الأثر، من خبراء الآثار، صبوراً على أهوال الطرق، وكان إلى ذلك أريباً، لبيباً، شاعراً، وكانت فرسه من عتاق الخيل، مضى سراقة يطوي الأرض طياً، لكنه ما لبث أن عثرت به فرسه وسقط عن صهوتها، فتشاءم، وقال: ما هذا؟ تباً لكِ من فرس، وعلا ظهرَها، غير أنه لم يمضِ بعيداً حتى عثرت به مرةً أخرى، فازداد تشاؤماً، وهمَّ بالرجوع، فما ردّه عن همّه إلا طمعه بالنوق المئة، فلم يبتعد سراقة كثيراً عن مكان عثور فرسه حتى أبصر محمداً وصاحبه، فمدَّ يده إلى قوسه، ولكن يده جمدت في مكانها، ذلك بأنه رأى قوائم فرسه تسيخ في الأرض، شيء غريب! فدفع الفرس فإذا هي قد ساختْ ثانيةً في الأرض، فالتفت إلى النبي وصاحبه, وقال بصوت ضارع، يا هذان, ادعوا لي ربكما أن يطلق قوائم فرسي, ثم قال: ولكما عليّ أن أكفّ عنكما، فدعا له النبي فأطلق الله له قوائم فرسه فأُطلِقتْ، لكنه تذكّر مئة ناقة، فما لبثت أطماعُه أن تحركت من جديد، فدفع فرسه نحوهما فساخت قوائمها هذه المرة أكثر من ذي قبل، فاستغاث بهما، وقال: إليكما زادي، ا إليكما زادي، ومتاعي، وسلاحي، ولكما عليّ عهد الله أن أردَّ عنكما مَن ورائي من الناس، فقالا له: لا حاجة لنا بزادك، ومتاعك ، ولكن رد عنا الناس، ثم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقت فرسه، فلما همَّ بالعودة ناداهم قائلاً: تريثوا، فو الله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال له النبيُّ: ما تبتغي منا؟ فقال: والله يا محمد, إني لأعلم أنه سيظهر دينك، ويعلو أمرك فعاهدني إذا أتيتك في ملكك أن تكرمني، واكتب لي بذلك، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الصديق فكتب له على لوح عظمٍ، ودفعه إليه، ولما همَّ بالانصراف, قال له النبي عليه الصلاة والسلام، كيف

بك يا سراقة لو لبستَ سواري كسرى؟ فقال سراقة في دهشة: كسرى ابن هرمز؟ قال رسول الله: نعم كسرى بن هرمز. وهذا من إعلام الله له، وليست مِن عنده, قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾. هذه المرة أصبح سراقةُ وفيًّا، وعاد أدراجه، فوجد الناس قد أقبلوا ينشدون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: ارجعوا فقد نفضتُ الأرضَ نفضاً بحثاً عنهم، لم أعثُر على أحدٍ، وأنتم لا تجهلون مبلغ بصري بالأثر، فرجعوا، ثم كتم خبره مع محمد وصاحبه حتى أيقن أنهما بلغا المدينة، وأصبحا في مأمنٍ من عدوان قريش، عند ذلك أذاع الخبر، فلما سمع أبو جهلٍ بخبر سراقة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وموقفه منه لامه على تخاذله، وعنفه، وعنف جبنه، وتفويته الفرصة .قال له: أبا حكمٍ، والله لو كنت شاهداً لأَمرِ جوادي إذ تسيخ قوائمه لعلمتَ، ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهانٍ، فمَن ذا الذي يقاومه.

ثم إنّ الأيامَ دارت، والنبي عليه الصلاة والسلام الذي خرج من مكة طريداً، شريداً، مستتراً بجنح الظلام، يعود إليها سيداً، فاتحاً، تحفُّ به الألوف المؤلفة ، وإذا بزعماء قريش الذين ملؤوا الأرض عنجهيةً، وغطرسةً، وكبراً، واستعلاء، يقبلون على النبي خائفين واجفين، يسألونه الرأفة, ويقولون: ماذا عساك أنْ تصنع بنا يا محمد؟ فيقول عليه الصلاة والسلام في سماحة الأنبياء: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء))، عند ذلك أعدّ سراقة بن مالك راحلته، ومضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه بين يديه، ومعه العهد الذي كتبه له قبل عشر سنوات، قال سراقة: لقد أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة، حتى غدوتُ قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على ناقته فرفعت يدي بالكتاب، وقلت: يا رسول الله, أنا سراقة بن مالك، وهذا كتابك لي، فقال عليه الصلاة والسلام: يوم وفاء وبر، ادنُ، فأقبلت عليه، وأعلنتُ إسلامي بين يديه، ونلتُ من خيره، وبره، ولم يمضِ على لقاء سراقة بن مالك برسول الله غير زمن يسير حتى اختار الله نبيه إلى جواره.

ثم دارت الأيام دورتها كرةً أخرى، وآل أمر المسلمين إلى الفاروق رضوان الله عليه، وهبت جيوش المسلمين في عهده المبارك على مملكة فارس، فطفقت تدكُّ الحصون، وتهدم الجيوش. وفي ذات يوم من أواخر أيام خلافة عمر قدم على المدينة رسل سعد بن أبي وقاص يبشرون خليفة المسلمين بالفتح، ويحملون إلى بيت مال المسلمين خمس الفيء الذي غنمه الفاتحون، فلما وضعت الغنائم بين يدي عمر نظر إليها في دهشة، فقد كان فيها تاج كسرى المرصع بالدر، وثيابه المنسوجة بخيوط الذهب، ووشاحه المنظوم بالجوهر، وسواراه اللذان لم تر العين مثلهما قط، ومالا حصر له من النفائس الأخرى، فجاء عمر يقلب هذا الكنز الثمين بقضيبٍ كان بيده، ثم التفت إلى من كان حوله، ثم قال الفاروق: إنّ قومًا أدُّوا هذا لأُمناء حقًّا. دعا الفاروق رضوان الله عليه سراقة بن مالك فألبسه قميص كسرى، وسراويله، وقباءه ، وخفيه، وقلده سيفه، ومنطقته، ووضع على رأسه تاجه، وألبسه سواريه، عند ذلك هتف المسلمون الله أكبر الله أكبر، لقد تحققت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام، لكن هذه النبوءة ليست من عند النبي، إنما هي وحي أوحي إليه، ثم التفت عمر إلى سراقة, وقال: بخٍ بخٍ يا سراقة أعرابيٌ من مدلج على رأسه تاج كسرى ، وفي يديه سواراه. ثم لم يقم من مجلسه حتى قسمه بين فقراء المسلمين. وانتهى الأمر.